EISSN 2588-2333 ﴿التـواصل الأدبي﴾ ISSN 1112-7597
العدد التسلسلي: 21 - جـوان 2023 المجلد: 12/ العدد: 02

جماليات الصُّورَة فِي رَحَلَاتِ الدّغِيرِيّ(*)

(دوَلٌ لا يَزُورُهَا الغُرَبَاءُ أَنْمُوذَجًا)

Imagery aesthetics in degherees travelogues

(Countries which are Scarcely Visited by Strangers as an Example– Duwaloon la yazooruha Alghuraba)

د/ أَحلَام عَبد العَزيزِ الوُصَيفَر
أُستاذُ الأَدَبِ والنَّقدِ المُسَاعِدِ
قِسْمُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وآدَابِها
كليَّةُ الآدَابِ/جَامِعَةُ المَلكِ فَيصَل
(aalosaifer@gmail.com)

تاريخ الإرسال: 14-06-2023 تاريخ القبول: 25-06-2023 تاريخ النّشر: 30-06-2023

المُلخَّص:

يُعدُّ نتاجُ الدُّكتور مُحَمَّد الدّغِيرِيّ الرّحليُّ من الموضوعاتِ التي لم تتعرَّضْ لها الدِّرَاسَاتُ الأَدَبِيَّةُ والنَّقْدِيَّةُ الحديثةُ، فلم نجدْ دراسةً تهدفُ إلى كشفِ جوانبِ الرِّحْلَةِ عمومًا، ووصفِها وَصفًا أدبيًّا، للكشفِ عن جوانبِ الإبداعِ في رَحلاتِهِ.

وقد وجدت في (دولٌ لا يزورُها الغُرَباء) للكاتبِ تميُّزا في وصف رحلاتهِ، بما أوتي له من قوة العبارةِ،وقدرة فنيَّة في وصف الأماكنِ والشَّخْصِيَّات؛ لذا كان القيامُ بهذا البحث الذي يتناول كشف جانب مهمٍّ من جوانبِ الرِّحْلَة الأَدَبِيَّة في رحلاته، وهو (الصُّورَة) ويعدُّ هذا المحور محورًا مهمًّا في دراسة الرِّحْلَة وأدبها، بوصفهِ من أهمِّ أبعاد الرِّحْلَة.

وقد وقع اختياري في المدوَّنةِ البحثيَّةِ على كتاب (دول لا يزورها الغرباء 2020 م) الذي ألَّفه إثر جائحة كورونا، ووظف كتاباتهِ للدّول التي زارها، ولم يكتب عنها.

وهي ثَماني عشرةَ دولةً، ولمكانتِها بينَ النَّاسِ اختارَ لها هذا العُنوانَ المناسبَ لها، فلتلك الدول ميزاتها الخاصَّة المذكورة في ثنايا الكتاب، بينَ صورٍ ملتقطةٍ، وَصور حسِّيَّةٍ، نقلها بأسلوبه الذي جعلَ لتلك الدِّول صورًا جَمَاليَّة متخيَّلة، وكأنك تراها، بل أكثر من الصُّور الحقيقيَّة تأثيرًا وجَمالًا.

فالصُّورَة الفنيَّة تترجم كافَّة الأحاسيس والمشاعر التي يشعر بها الأديبُ، وينقلها بأسلوبهِ عن طريق الصُّورَةِ الفنيَّةِ، المأخوذة مِنَ الطَّبيعَةِ التي يراها الأديبُ، ويتأمَّلُ فيها من ناحيةٍ وجدانيَّةٍ ونفسيَّةٍ يمرُّ بها أثناءَ رحلتهِ.

الكلمات المفتاحية:

الصّورة، الرّحلة، أدب الرّحلة، الدّغيري، جماليات.

Astract *:*

The productions of Dr. Muhammad al-Daghiri al-Rahali are one of the areas in which modern literary and critical studies have not covered. There are no acknowledged studies aimed at revealing the aspects of the journey in general, and describing it literarily, to reveal the aspects of creativity in his travels.

I found in (*Countries Not Visited by Strangers- Duwaloon la yazooruha Alghuraba*) that the writer excelled in describing his travels, with the strength of his expression, and his artistic ability in describing places and personalities; therefore, carrying out this research, which deals with revealing an important aspect of the literary journey in his travels, which is (the image). This aspect is an important topic in the study of the journey and its literature, as one of the most important dimensions of the journey.

My choice of research blog fell on the book (*Countries Not Visited by Strangers 2020 AD*), which he wrote after the Corona pandemic,

and he used his writings for the countries he visited, but did not write about them.

They are eighteen countries, and because of their status among people, he chose this appropriate title for them. Those countries have their own characteristics mentioned in the folds of the book, between captured images and sensory images, which he conveyed in his style that made these countries beautiful with captivating images,as if the reader were seeing them, with a more impactful experience than the real pictures in terms of effect and beauty.

The artistic image translates all the sensations and feelings that the writer feels, and conveys them in his own style through the artistic image, which is taken from nature and the scenery which the author observes and reflects on from an emotional and psychological point of view that he passes through during his journey.

Keywords: Image, travel, al-Daghiri, travel literary, aesthetics.

المقدمة:

يُعدُّ أَدبُ الرِّحْلَة أحد أهمِّ الأجناسِ الأَدَبِيَّة قديمًا وحديثًا، هَذا الجِنْسُ جديرٌ بالاهتمامِ، ولم يأخذ حقَّه من الدِّرَاسَات الأَدَبِيَّة على الرَّغم من أنَّ مادَّتَهُ غنيَّةٌ، تفيد كلّ الدِّرَاسَاتِ، إذا طبّقتْ فيه الأدواتُ المنهجيَّةُ التي تحملُ الدَّلالاتِ العميقةَ، والقيمَ الجَمَالِيَّةَ المتنوعةَ، والخِطَاب الرّحليّ يحملُ العديدَ منَ الجماليَّاتِ على المستوى السَّرديّ واللُّغَوِيّ والأسلوبيّ.

"ويعدُّ مُصطلحُ(الصُّورَة) وموضوع بلاغَتها أيضًا، من أكثر المصطلحاتِ العصيَّةِ على التَّعريف، التي يكتنفها نوع من الغموض، كما أن تحديد طبيعتها هو أمر محفوفٌ بصعوبات جمَّة؛ أنها مراوغة تتأبَّى على التَّحديدِ، وليس لها حدٌّ جامعٌ مانعٌ، كما يقول المناطقة، فهي قيد التَّنظير المطلق، والتَّعقيد الذِّهنيّ الصَّارم.

ويرجع ذلك إلى أنَّ الصُّورَة عملية تعبيريَّة حيَّة مرتبطة بتطور الإبداع الأدبيّ من جهة، ومن جهة أخرى إلى اختلاف مفاهيم هذا المصطلح لدى المناهج النَّقْدِيَّة الحديثة المتعدِّدة، ومن ثمَّ يبدو حدُّ (الصُّورَة) غامضًا إلى حدٍّ كبيرٍ مادامت ماهيَّتها مختلطة بوظيفتها، أو بمهمتها في الإبداعِ الأدبيّ".[1]

"وتتعدَّد مصادر الصُّورَة وتشكيلها، بيد أن الخَيَال والواقع يقومان بالدّور الأساس في تشكيلها وصياغتها، وكذلك ما يتعلَّق بهما من مُؤثِّرات تتَجانسُ في الصُّورَة، وتمتزجُ امتزاجًا جدليًّا، بحيث يصعبُ ردُّها إلى مصدر ما من هذهِ المصادِرِ.

ومن ناحية دور الخَيَال في تشكيل الصُّورَة فإنَّه يعد المحرك لها، والوسيلة الفنية لتحريك عالم الشُّعُور، وهو ملكيَّةٌ لمن أحسنَ استخدامها، إذ يلجأ إليه المبدع لبناءٍ جماليّ، عندما تعجز اللُّغة الحرفيَّة عن أفكارهِ ومشاعرِه، فيشكل بها عالما وجدانيا فسيحا، ينفذ إلى مخيلة المتلقي، فينطبع على نحوٍ معيَّنٍ، وهيئة مخصوصة"[2].

والذي دعاني لاختيار هذا الموضوع ما وجدته في رَحلاتِ الدّغِيريّ من اهتمام بالصُّورَة،" وترتبطُ الصُّورَة في الرَّحلَات الوَاقِعِيَّة بالذَّات والآخر غير متورِّطة في البلاغة أو الإيحاء والتَّرميز، خاصة وأن من أهدافها التقاط عناصر عدَّة من العالم الخارجي، وأخرى حول الذات وتفاعلاتها، لأنها تمتلك خصوصياتها، وتختزنُ وعيًا بذات الرَّاوي ضمن نسقٍ جماليّ لا تفصح إلَّا عن الضَّروريّ المرتبط بالسَّفر.

وهي محدودةٌ في غطائها، تتقدمُ بصفتينِ اثنتينِ:

الصُّورَة المباشرة، أو غير المباشرةِ، وهي المِمَثَّلَة في تقديم صُورة أخرى عن موقفٍ يَعكس رغبات الرَّاوي وبواطنَهُ.

وتتكوَّن الصُّور من صورة لتقديم (الذَّات)، وصورة التَّجسير (الآخر)، وصورة الموقف(الهدف) حتى توصف الصُّورَة التَّقديميَّة"[3].

خاصة وإنْ كانت الصُّورَة في أدب الرَّحلَات، فستكون مميزةً أكثر من غيرها، حيث التَّنوُّع والاختلاف والتَّشكيل في الصُّورَة، تبعا لاختلاف البلدان المشار إليها؛ لذا فإنَّ المعلوماتِ التي يضيفها الرَّحَّال للرِّحلة تُسْهِم في تشكيل الصُّورَة واختلافها وتنويعها.

وقد حظي هذا الأدب "بالعناية من بعض المستشرقين، يتقدمهم العالم الروسي الكبير"اعناطوس كراتشوفسكي" فاعترف بهم الكثيرون من الأجانب الباحثين الكبار، واعترفوا بجهودهم ونوهوا بقيمة رحلاتهم من حيث مادتها وأسلوبها، وطريقة عرضها فمستوى الحضارة التي بلغتها الأمم كان بفضل الرحلات"[4].

"ويعد أدب الرحلة من الأنواع الأدبية التي اتسمت بميزاتها وطابعها الخاص، غير أنه لم يحظ بالدراسة التي يستحقها فقد حيد هذا النوع الأدبي حتى كدنا نتناساه، مع التنويه إليه هنا وهناك في شتات الدراسات التي تناولته إما بطريقة تاريخية أو جغرافية، أو سوسيولوجية، لما يحمله من تراث متكامل من أخبار المجتمعات وتقاليدها، فهو جنس ملم وشامل يجمع بين شتى العلوم، بما في ذلك من تاريخ وجغرافيا واقتصاد، إضافة إلى التراث الأدبي الزاخر، ويعتبر مادة غنية تفيد كل دراسة فنية ولغوية، إذ نجده يتقبل الدراسة بأدوات منهجية مختلفة ومتنوعة لما يحمله من دلالات عميقة وقيم جمالية"[5].

أولا– تصويرُ الطَّبيعَةِ الصَّامِتَةِ:

يبدأ الرحَّال في سرد الأماكن التي زارها بأسلوبٍ جغرافيٍّ أكثر من أنَّه تصويريٌّ، وذلك في ذكر طبيعة (موناكو الدّولة بمزاج إنسانيٍّ)، حيث يقول عنها: "طالما قرأت عنها في المجلَّات، وشاهدتها في التِّلفاز، وعلى صفحات الانترنت، وسمعت أثيرها عبر إذاعتها الشَّهيرة (إذاعة مونت كارلو) أما أنا اليوم فأنا في موناكو قلبا وقالبا، هي ذات سيادة تطل على البحر المتوسّط تحدها فرنسا من ثلاث

جهات، وتقع على سلاسل جبال الألب العملاقة التي تبدُو كأنَّ سطح الأرض لا يكفيها عرضًا؛ولذا تتطاول وتمتدُّ من أعلى إلى أسفل حاضنةً شريطًا أمنيًّا ضيّقًا ملتمًّا على نفسه، وكأنها تقدّمه قربانا للبحر المتوسط؛ لتهدئه، ممهدة لتصالح أزلي بينهما"[6].

وذاتية الدّغِيرِيّ بنظرته للمدن تصور المدينة كما هي بعينه، وقد يصف كل ما في المدينة كما في قوله عن عاصمة أرتيريا (أسمرة): "أسير في شوارعها وأزقتها وأحيائها التي شيدها الطليان، وأطلقوا عليها (روما الصَّغيرة أو الجديدة) توسّطت بنايتها أشجار النَّخيل الوافرة العملاقة التي لا تثمر ثمرا"، ثمَّ يصف شوارع أرتيريا الرّيفيَّة" تجاوزنا حدودَ المدينة المزارع وقطعان الماشية تحتَ الأسفلتِ، الصّبيان والصَّبايا على جانبي الطَّريق يحيون العابرين مبتسمين، والقُبرى على جانبي الطَّريق كعقد انفرط نظمه، البيوت حوائطها من الخشب والطِّين في كل قرية مسجد قد لا تعرفه إلَّا حين يرفع الأذان، فقد يكون محشورًا بين البيوتِ أو منزويًا في أحد منعطفات الطُّرق الثُّعبانيَّة، لا يوجد في تلك القرى المحيطة بالعاصمة ما يثير الفضول سوى الصبر على الألمِ واصطناع البشاشةِ لمن يقابلهم"[7].

ومن الطَّبيعَة الصَّامِتَة التي أدهشتِ الرَّحَّالةَ في رحلاته، وجود القلاع، فهو يركز على القضايا التَّارِيخِيَّة والجُغْرَافِيَّة لكلِّ بلدٍ يُسافرُ إليها.

لذا ركَّز في اسكتلندا على ما تبقَّى من حضارتها يقول عن ذلك:" إنَّ أجملَ ما تبقَّى من الحضاراتِ الغابرةِ في اسكتلندا ليس القصور المفرطة في زينتها وأثاثها، واللَّوحات الكلاسيكيَّة المعروضة على جدرانها وحدائقها، بل إنَّ أجمل ما أثار دهشتي تلك القلاع التَّارِيخِيَّة التي تملأ مدن اسكتلندا أو قراها، والتي بلغ عددها حوالي 3000 قلعة بشتى الأشكال والأحجام، والسبب وراء العدد الكبير من القلاع هو أن لكل قبيلة قلعة واحدة على الأقل للقرن 11 و12."[8]

ويرسم لنا الدّغِيرِيّ صُورة التَّضاريس للبلد التي يزورها، إضافة إلى موقعها الجغرافي، ومكانتها التَّارِيخِيَّة، مضيفا إلى هذا الوَصف صورًا جَمَالِيَّة كقوله عن (ألماتي): "ولهذه المدينة مرأى حسن، فهي واقعة في سهل فسيح تحيط بها جبال شامخة لا ينقطع الثلج عن قممها، تحتضنها بنوع من الحنان، وكأنها تريد أنْ تحميَها من سوء محتمل نحن لا نراه، ولكن! الجبال تستشعرهُ بعمقٍ، كلّ شيءٍ فيها منفتحٌ على شكلٍ لا نهائيٍّ وغير محدودٍ، الشَّوارع الفسيحة والنَّظيفة، وعربات التِّرام التي تعبر مساراتها بانتظامٍ واضحٍ، والنَّوافيرِ المتنوِّعة، والميادين المليئة بالزُّهور، والفنادقِ، والمِسَارح والمقاهي الحيَّة النَّابضةِ"(9).

وقد شخص الجبال بأنَّها تحتضنُ المدينةَ بنوع من الحنان، ويشبهها بمن يريد أن يحميها عن سوء محتمل، وهذه الصُّورَة التَّشخيصيَّة والاستعاريَّة دلالة على استشعارهِ لجماليَّات هذه الطَّبيعَة، التي تعمق في وصفها؛ ليبدأَ في سياحتهِ العميقةِ في المدينةِ، وذلك بنظره في وجوه شَخْصِيَّات الرِّحْلَةِ.

وقد يصوّر الكَاتِب بصورةٍ فنيَّة البلد التي زارها، وطبيعتها الصَّامِتَة من بدايةِ الرِّحْلَةِ، وذلك بذكرِ المكانِ، وهو البلدة المقصودة من البدايةِ، فيقولُ عن مقدونيا: "تأسرك مقدونيا من اللَّحظة الأولى حيثُ تنتقلُ بك في الزَّمَان والمِكَان إلى عصر الإمبراطوريَّة المقدونيَّةِ الغابرة.

تختفي أمام ناظريك السَّيَّارات والمتاجر والأَرصفة، وتكاد ترى رأي العين الخيول والمركبات الخشبية تنطلق في الشَّارع أمامَكَ، إنَّ الهواء الذي تتنفَّسه فيها يعبق برائحة التَّاريخ ذاتهِ لو كان له رائحةٌ"(10).

إنَّ المعلومات التَّارِيخِيَّة والجُغْرَافِيَّة التي يقدمها الرَّحال على كل بلد، لهي شاهد على كثرة علمه الجغرافيّ في ذلك البلد حيث ذكر ذلك عن مقدونيا بعد أن وضح طبيعتها الصَّامِتَة بأنَّها مهد لإحدى أعظم الإمبراطوريات التي عرفها التاريخ،

فمن العسير أن يقرأ تاريخ مقدونيا وهي دولة ممتدَّة آثارها عبر اليونان وبلاد فارس إلى الهند ومصر، وإن مصدر هذه الحضارة في هذه الدَّولة الصَّغيرة على خارطة أوربا وعاصمتها سكوبيَّة، كما قال عنها الرَّحال: "غالبيَّة ميادينها وساحاتها تحصِّن نفسها بتماثيل القادة العسكريّين والسَّاسة، غير مبالية بزوارها الغرباء، ويوما بعد يوم تزيح المدينة ستار التاريخ؛ لتعبر بنا إلى عصرها الإسلاميّ، ولو على استحياء"[11].

ويختصر الدّغِيرِيّ بعض المعلومات في تضمين عن الأدباء في رأيهم عن آداب وثقافات الأمم بقوله: "إذا لم تقرأ شعر مدينة ما فكأنَّك لم تزرها، وقيل أيضا إذا لم تعرف تاريخ بلد ما فكأنك لم تعرف شيئا عنه، ومالم تتعرف على أحلام أهلها في تاريخهم وقصائدهم فكأنَّك تجوب مدينة لا ينتابها عشق ولا يمسها حزنٌ"[12].

لقد وصف الكَاتِب رحلاته منذ مغادرته المطار، وحتى ركوبه الطائرة، ونظراته التَّأمليَّة منذ جلوسه على مقعد الطائرة، ذاكرا موقعها الجغرافيّ، وما يحدها من الدول بالمسافات الزَّمَانية، ويكفي ذكره للمدينة، ووصفه لها من عتبة الموضوع والنص، حيث يقول عن إحدى الجزر التي أفرد عن رحلته إليها موضوعا خاصا، وهي (جزيرة مان) التي وصفها في العتبة (صمت يشع وجهه ببسمة وقورة) ثم بدأ الكَاتِب بوصف الجزيرة بقوله: "من مطار دبلن تغادر الطائرة شرقا إلى جزيرة مان، أربعون دقيقة فوق البحر الإيرلنديّ، هو المدى بين جمهورية إيرلندا، ومقصدنا في الرِّحْلَة المشوقة إلى إحدى الجزر الخالدة التابعة للتاج البريطاني، والتي تتمتع بحكم ذاتي مستقل، اكتملت إجراءات الإقلاع كعادتي أختار موقعا يجاور نوافذ الطائرة، أرقب اليابسة والسَّحاب المتراكم"[13].

وقد سرد أنَّ هذه الجزيرة مطوَّقة بالأمواج وسفن الصيد، وقوس مطر بألوان مدهشة مشوقة تطوق الأرض، وتمنحه جمالا سماويا يفوق الخَيَال، وذكر أن آلاف

الأسماك تحول قرب الشَّواطئ الضحلة، وكأنها ترسم لوحات نادرة لبهاء الطَّبيعَة، ثم ذكر أنها صغيرة حتى توقع عند الهبوط أنه سيسقط على الأرض.

وممَّا يدهش في رحلات الدّغِيرِيّ حديثه الذاتيّ عن أسلوبه في الرِّحْلَة، ووصف شعوره ومشاعره الذاتية. يقول عن طريقته أثناء الرِّحْلَة، وفي هذه الجزيرة بالذات: "أمشي وحيدا دون هدفٍ معلنٍ، فالأهداف الخفية شيء جميل لا خلاص لنا فيها، أستعمل الخلاء الذَّاتيّ من الأهدافِ ولو مؤقَّتًا، وهو ما أقوم به في هذه الجزيرةِ بسعادةٍ لا حدودَ لها، سأرى إلى أي الأمكنة تقودني قدماي، فأنا بالتأكيد لن أحزن إلا إذا ضلتا الطريق وعادتا من حيث أتيت، وبالرغم من صغر مساحة هذه الجزيرة التي يمكن رؤية معظمها بالتنقل عبر شبكة من السكك الحديدية التراثية التي تعمل بالبُخارِ والكهرباء، أو حتى التنقل عبر العربات التي تجرها الخيول الضخمة، ومنها أيضا حسن موقعها الذي جعلها الموقع الوحيد في الجزر البريطانية الذي يمكنك من خلال رؤية جميع أجزاء المملكة المتحدة في أيام صافية (إنجلترا وويلز واسكتلندا وإيرلندا).

إنَّ تصويرَ الكَاتِب للطَّبيعة الصَّامِتَة أو الصَّائتة لكلّ دولةٍ، هو أكبر سبب يجعل القارئ يستشعر جماليات المدينة، فوصفُ الكَاتِب للمباني والحدائق والشَّوارع والجسُور أكبر وصف لأماكن الرِّحْلَة يعبر عن المدِينةِ.

فوصفه لمدينة براغ بالتِّشيك يمثل هذا بقولهِ: "مدينة تتلاصق فيها المباني العتيقة الجميلة بألوان القرميد المميزة، شوارعها بسيطة ومستقيمة، كأنها رسمت على الأرضِ بمسطرةِ طالبٍ نبيهٍ، تتميز بقلب تاريخيّ تنتشر فيه الأزقة الضَّيِّقَة ذات التَّعاريج والالتواءات، وساحات صغيرة تضجُّ بالحياة، وصولا إلى جسر تشارلز الشَّهير فوق نهر فلتافا الذي يعد من أشهر المعالم السياحية في براغ"[(14)].

"ولما كانت الطبيعة جزءا من رحلة الحل والانتقال، فإن الاهتمام بها يضفي على النص الرحلي دينامية خاصة، بما لها من واقع خاص يتجلى أثره فيما تتضمنه فقرات النص الرحلي من دلالات وإيحاءات، كما هو موجود في ثنايا هذه الرحلات، لذا يعد الارتباط بالمكان بوصفه باعثا على الانفعال والتأثر محطة عند كل مدينة يزورها"[15].

والصورة الشعرية موضع الدراسة" ليس من السهل الإحاطة بكل جوانب الصورة الشعرية وما يتصل بها مما ذكره القدامى والمحدثون حولها، وما ذكره الغربيون في تناولهم لها كما أنه ليس سهلا تحديد مفهوم على درجة من الدقة المتناهية للصورة الشعرية باعتبارها فنا زئبقيا سريع الانزلاق والتملص من قيود التعاريف التي حاولت محاصرتها، ثم إن الأفضل للصورة الشعرية أن تظل محافظة على جماليتها وتحررها من الفضاءات التي يخلقها الأديب"[16].

ثانيا– تصويرُ المكَان:

ذكر الأمكنةِ في الرَّحلَاتِ شكلٌ من أشكالِ التَّأثُّر بالواقعِ وتقلُّباتهِ، وحين يصوِّر الرَّحَّالةُ الأمكنةَ فإنَّه يمتلكُ بحضورِهِ النَّصيّ بعدًا تأمليًّا يتيح إمكانيَّة تجديد هويته وتحسس المعاني التي يتضمنها بوساطة تحويل مكوناته المادية إلى لغةٍ واصفةٍ.

فالمِكَان في سياقِ توظيفهِ النَّصيّ جزءٌ من منظومةٍ نصِّيَّة تتيح إمكانيَّة قراءتهِ بوصفه تعبيرًا عن الهوية والانتماء، والنَّظر إليه ضمن سياقاته النصية، وإدراك جزئيَّاته وما يحيط به من أبعاد متعددة، تتفاوت فيها تأثير الأمكنة تبعا لأهميتها وتموقعها في بيئتها التي تنتمي إليها، وهو ماي عني أنَّ لمِكَان الواحدَ قد يثير في النَّفس أكثر من دلالةً تبعًا للحالة الشُّعُوريَّة المصاحبة لعملية إبداع المِكَان فنيًّا.

يقول الدكتور الدّغِيرِيّ وهو يصورُ موناكو بعد أن وضع لعتبتها عنوانا (دولة بمزاج إنساني): "أنا في موناكو أمضي بلا بوصلة، فهي إمارة تقوي بالتيه والضلال، وتقوي بالاستسلام لغوايتها، فلو شئنا أن نمثل مدينة أو دولة بمزاج إنساني فموناكو إمارة باسمة كعروس زاهية مغوية وأنيقة تمنحك شوارعها المرصوفة بالبلاط الملون إحساسا با للانهاية والأمل"[17].

فقد صوَّر الرحال موناكو بصور تدل على خياله المنطلق بلا حدودٍ، حين شبه ذلك البلاط باللانهاية، ووضع حدا له الأمل.

وهو يسعى بلا بوصلة، فلا حدود للجمال الذي يعيشه، حتى استخدامه لكلمة (تيه) فهو لا يعلم من أين أتى، ولا إلى أين سيذهب، ولا زالت صورة المرأة ماثلة في ذهن الرحال، فموناكو كعروس زاهية، مغوية، وأليفة في غوايتها، ثم إنه لم يستطع تجاه هذه الغواية إلا الاستسلام.

فصورها بمزاج الإنسان، الإنسان المتقلب في دلالة نفسية عميقة للرحال، بين هذه البلاد وبين مزاجه المتغير.

وينتقل الكَاتِب في نفس المدينة إلى صور أخرى حيث يقول: "الشمس تنشر أشعتها على المدينة، وكأنها تغسلها بلونها الذهبي؛ لتوقظها من نومها، فتخرج من سباتها كحورية البحر التي يحكى عنها في القصص القديمة"[18].

وقد جمعَ الرَّحالُ في تصويرِه للرّحلة بين عناصر الرِّحْلَة بأسلوب موسيقي ارتبط بالزَّمَان والمكان. بقوله عند وصوله لأرتيريا: "أن تدخل مدينة غريبة عنك آخر اللَّيلِ، فتلك لحظة تجمع مناصفة بين المغامرة والمقامرة" ويختم الرِّحْلَة بما بدأها بقوله: "حيث الماضي لا يزال يتحدث، والحاضر واقع مترجم، والمستقبل ينصت ويرقب، ومع ذلك لا يمكنني أن الطَّبيعَة المميزة لجُغْرَافِيَّة ومعمار البلد، وثرائه بالتَّفاصيل

والعراقة رغم تخلفه، تجعل من زيارته أمرا شبه إلزامي على كل رحالة يحب تذوُّقُ الاختلافِ"[19].

ويصور كل ما في المكَان من معالم في كل بلدة، كالقلاع مثلا، فيجعل منها كما يقول: "القلعة تعد بطاقة هوية للمدن الأوربية، وكما قيل مدينة بلا قلعة تعتبر مدينة يتيمة أو مغضوبًا عليها، ولذا تتزين العاصمة الاسكتلندية (أدنبرة) لزوارها بتزيين قلعتها؛ لتحصن نفسها من العدو، وللدفاع عن حرماتها في مواجهة الغزاة، قبل أن تتحول تدريجيا إلى قلعة فنية مهمة ليس على مستوى اسكتلندا فقط، بل على مستوى العالم، فتسرق انتباه السائح وتلح عليه بزيارتها"[20].

ويركز ويصور على جامعة أدنبرة العريقة التي تعد مهدا لكثير من رجالات العلم والفكر والأدب والهندسة والطب.

وقد يصوّر الرحَّال شوارع البلاد واصِفًا الزَّمَان والمكَان فيها بقوله عن الفلبين: "كنت ألتقي بالشَّارع الفلبيني كل صباح، فالفجر وقت عمالها وبحارتها، والليل هو ليل أسرارها وألغازها، أما الضُّحى فلم أجد سوى مدن البحر مكشوفة تبزغ أمام النهار الطالع، أسير في شوارعها المزدحمة بالسيارات والدراجات والبشر، وأتسكع في أحيائها الشَّعبيَّة التي ضرب الفقر أطنابه في بعضها، وأقف متأمل لمسة العولمة التي لحقت بها، فامتلأتْ بالفنادق الفخمة والأبراج الشَّاهقة، والمجمعات التِّجاريَّة الضخمة التي تماثل ما هو موجود منها في مدن العالم العربي والغربي"[21].

لقد صوَّرَ الكَاتِب بعضَ الدِّولِ من بدايةِ وصولهِ إليها: " فنجدُه منذ بدأ وصف قرغيزستان اسمها بلد التركواز واللازورد المبهج في تكاثفه، ترتفع قمم جبالها كأنها تستحلب المطر والسحاب، فتكتسي الأرض بخضرة لا مثيلَ لها، والبحيرات والأنهار الصافية الرقراقة مع الطقس الذي يميل للبرودة نهارًا"[22].

وقد ذكر جماليَّات المِكَان جامعًا بين الناحية الجُغْرَافِيَّة والتَّارِيخِيَّة في وصف الأماكن والبلاد التي يزورها، فقد اطلع القارئُ على معلومات جُغْرَافِيَّة وتَارِيخِيَّة للمدينة، ومثال ذلك الجزر التي يزورها، كمثل جزيرة الزُّمرُّد التي قبل أن يوضح مكانها الجغرافي، عرفها في العتبة، وصفها باسم (في إيرلندا ماضي معقَّد وواقع مضطرب) ثم بدأ يذكر موقعها الجُغرافيّ، وكل ما يحيط بهذه الجزيرة، من مكان، وشَخْصِيَّات، وتاريخ، بتصوير لها.

يقول: "على شاطئ الأطلسيّ حيث عتو أمواجه الهادرة، وإيقاع الصُّيخور الصَّاخبة تنبئك أن لقاء حميميًّا بينهما، ووفاقا قد تخطئه الباصرة، ولكن حتما ستبصره البصيرة" ثم يكمل وصف تضاريس هذه الجزيرة من نافذة الطَّائرة.

فيقول: "موعدنا مع جزيرة كبيرة تدهشك طبيعتها بأشجارها المتنوعة ذات الألوان المختلفة وبالسُّحب التي تحنو على مرتفعاتها ذات الصُّخور الملونة ببني فاتح وقرميديّ، وبالخضرة التي تسكبُ على كُلّ ما يحيط بها رداء زمرديا، أينما تلفت يرافقك جمالُ لا يفارقُ ناظريكَ كلوحةِ فُسيفِساءَ عملاقة، إنها جزيرة إيرلندا المقسمة بين إيرلندا الشَّماليَّة والجنوبيَّة"[23].

إنَّ ربطَ الدّغِيرِيّ مظاهر الطَّبيعَة ووصفها بالمناخ الجغرافيّ والتَّاريخ الزَّمَانيّ المكانيّ، أضفى على رحلات الدّغِيرِيّ ميزة خاصَّة، إضافة لما للوصف، وتصوير المِكَان من تصوير فنّيّ وجمالي مميز، فتاريخ جزيرة الزمرد، لم يعرف إلَّا من خلال تلك الرَّحلَات التي تميز بها في وصف المكان، ويصف الكَاتِب إضافة إلى طبيعة المكان، طبيعة الحركة فيها، فعند وصوله للعاصمةِ الجورجيَّة، صور مكانها مقارنًا بينها وبين تركيا، بدأ يصفُ طبيعَةَ أهلِها.

يقول: "على الطَّريق من المطار إلى العاصمة بتبليس بدأت باستقبالي زخَّات مطرٍ تهطل بشكل متقطع، أضافت لونًا فاتحًا على وجهِ البلدِ، ودفئًا على جُغْرَافِيَّة

جورجيا التي لا تختلفُ كثيرًا عن جُغْرَافِيَّة شمال تركيا بجبالها العالية، ومشاهد القُرى المتناثرة، والأراضي الزِّراعيَّة الخصبة المزروعة بجميع أنواع العنب، وبالاقتراب من تبليس تتراجع تدريجيًّا مشاهد الرِّيف فاسحة المجال أمام التَّمدُّن والنَّمط المِعماريّ الحَضَريّ.

وقد قالوا عن تبليسي تزدحم في الليل غنجا وحياة، وتنام هي الأخرى نوما عميقا للتخلص من إرهاقها الليلي"[24].

وتختلف رؤية الكَاتِب وتأملاته من بلد إلى آخر حين يصوِّر براغ بتصوير مختلف عن سابقاتها من الدول فيقول: "إننا لا نزور الأماكن بعيوننا المجردة، ولكن بما خلدناه في ذكرياتنا، كنا في الطريق كأننا في متحف كوني والعالم يمر أمامنا، سهول فسيحة، خضر مليئة بالأشجار والنباتات، تعبر السُّهول الشَّاسعة أنهار لا حصر لها، تترقرق مياهها كصفائح الفضة مع سقوط الشمس عليها، آفاق الأرض على مرمى البصر موسومة بجبال خضراء، غربت الشمس عن الفضاء الشاسع المبتل بالرمال"[25].

ويظهر الإبداع في وصف الأمكنة حين يقول الكَاتِبُ: "عن أحبِّ المدن إلى نفسهِ: "المدن التي تقعُ على البحر تقترب من قلبي، أما المدن التي تجمع بين التلال الخضراء والبحر فهي تأسر قلبي تماما، وبحر البلطيق الذي يقع في شمال أوربا ويتخذ شكل قوس أفقي محدب، وعلى ضفاف هذا القوس المائي يغفو عدد من المدن المميزة، فيها (هلسنكي) تماثل سيدة ذات خيلاء ملائكية، تلامس فضولك من اللحظة الأولى بأنامل من ذهب، تخاطبك بشعاراتها قائلة: عشني؛ لتحبني"[26].

وتعد هذه الدَّولة أحد أعلى مستوى للمعيشة الحضاريَّة في العالم.

ثالثا– تصويرُ الشَّخْصِيَّات:

لقد صور الرحال الدّغِيريّ شَخْصِيَّات الرِّحْلَة أو رؤيته عن الرِّحْلَة بصفة عامة بقوله: "ولأني آمنت أن تجارب الآخرين لا تعني بالضرورة تجربتي الخاصَّة، آثرت التجرد من النظرة المسبقة، فلا أزيد أن أتعلم مما تعلمه الآخرون، فمن يشرحُ لي دروس الكون غير عيني"(27).

ويصور طبيعة شَخْصِنِيَّات كل بلد يسافر إليها، وذلك بأشكال مختلفة تنبىء عن طبيعة البلد، وميزة أفرادها. فقد يرصد هذا التَّصوُّر منذ دخوله إلى المطار، ورؤيته لموظفي الجوازات. فمثلا يتحدث عن موظفي أرتيريا بقوله: "توجّهت إلى نقطة مراقبة جوازات السفر التي تشرف عليها ضابطة في الجيش بعينين غائرتين، وشعر مجعد، وملامح تتجاوز الأربعين، كانت كئيبة وهي تشتغل إلى منتصف الليل في مطار دوليٍّ، لم تسألني كما يفعل الضُّباط عادة، قلبت جوازي بين راحتي يديها، ومررته لي من تحتَ عازلٍ زجاجيٍّ"(28).

فقد وصف الرحال بعدها الجسماني والنفسي من خلال عينيها الغائرتين، وشعرها المجعد، وملامحها التي تتجاوز الأربعين، أما النفسي: فهي كئيبة من شدة التعب للعمل الذي تجاوز منتصف الليل.. ويخرج من تصوير موظفة الجوازات؛ ليدخل مباشرة في وصف السائق في أرتيريا.. يقول عنه:" وجدت سيارة وحيدة لشاب طويل كان يدخن بعمق، كما لو أنها السيجارة الأخيرة"(29).

وصورة الشَّخْصِيَّة المتعبة، والكادحة نجده يذكرها في أكثر من صورة في أرتيريا فيقول عن رجالها: "غادروا بيوتهم؛ ليلحقوا بأعمالهم، بعضهم يمشي خمس كيلومترات ذهابا وإيابا؛ ليوفر لنفسه قيمة الانتقال من أجل عمل لا يفي بشيء من احتياجاته، أناس يتبدَّى الفقر في سيماهم، ويتوطن في تقاطيعهم، يتحايلون باصطناع الفرحِ في تفاصيل أيامهم الرَّتيبة، فبحكم الخلفية التَّارِيخِيَّة لهذا البلدِ وأهلهِ، لقي إهمالًا، ولم ينل

إنسانه ما يرتقي بحياته، إذ قلت وسائل كسب العيش فيه، وأسهمت الحرب في تدمير اقتصاده الريفي الهش، فشاع الفقر وكثر المهاجرون خارج البلد من الرجال بحثا عن حياةٍ كريمةٍ"[30].

والشَّخْصِيَّة أو مزاج البشر مجال تصوير في رحلات الكَاتِب، حيث إنه يتعمق في دواخل نفس الرحال، فيصور المدن بمزاج البشر بقوله: "المدن التي نزورها مزاج كالبشر، إما تشبهنا فنحبها، وإما تتنافر معنا فنكرهها، وهذا يشبه تمامًا ذلك الغموض الذي يحيط بنا، ومن اللحظة الأولى حين نحب أشخاصا، وننفر من آخرين دونما سبب واضح، وهذا ما حصل معي تمامًا عندما زرت مدينة ألماتي في جمهورية كازخستان، فهي مدينة عذبة لا يمكنني إلَّا أن أحبَّها منذ لحظة وصولي إليها"[31].

ويصور الدّغِيرِيّ شَخْصِيَّات أصحابِ المدنِ برؤيتِه الخاصَّةِ. فيقول عن الشَّعب الكازاخيّ في ألماتي: "وجوه ساكنيها باسمة مليئة بالحيويَّة، الكلّ سعيد وعاشق للحياة، من أين ينبع هذا الشُّعُور المستمر عند أهلها؟ وهل ستنتقل عدواه إليك؟ وقبل ذلك وبعده، لديهم أدب جم، وأناقة الحفاوة وعمقها التي تحتضنك بها عيون كل من يعرف أنك غريب، وتراه يحار كيف يكافئك، والباعة ودودون ويحاولونَ جذبي كيف أتذوق ما يبيعون بلهجة يصعُبُ عليَّ فرز حروفها وكَلِمَاتها عن بعضِها، انصهرت في ليونتها وصلابتها، واختلطت مباشرةً بأهلِها"[32].

وقد يصور في المدينة بنايتها، القوارب في شواطئها، الباعة الذين يبيعون، السياح، الأطفال ووصف ملامحهم.

فقد صور الرحال هذه الشَّخْصِيَّات تصويرًا تظهر فيه التَّشْبيهاتُ والوصف والتَّصْوِير الدقيق لملامح كل ما في المدينة من طبيعة صامتة وصائتة وشَخْصِيَّات، وكأنك ترى المدينة كما أنت فيها.

يقـول عـن مالقـة: "بنايتهـا أنيقـة تطـل علـى البحـر، وقـد تقشـر طلاؤهـا مـن الرطوبـة، قـوارب ملونـة، وكأنهـا خيـام نصـبت في البحـر، وهنـاك زنـوج مهـاجرون يجلسـون علـى الأرصـفة، ويبيعـون سـاعات وبناطـل وعطـورًا مقلَّـدة، ومـن تلـك المشـاهدات السـاحلية حيث يكثر السياح أخـذتني أقـدامي إلى أحيـاء قديمـة فرأيت أمـاكن تـوحي بأني في مدينـة عربيـة، حيث تسنى لي رؤيـة أهـالي الأنـدلس الحقيقيّينَ على طبيعتهم وسجيتهم، أطفـال يلعبـون بملامحهـم العربيـة ومـارة مـن نسـاء ورجـال، ملامحهم شرقية أيضًا كلّ هذا يقودني إلى حكاية مبتورة"[33].

وفي بعض الرَّحلَات للدغيري يبدأها بتصوير الآخر في هذه البلادِ وهذا ما وجدناهُ عنده في رحلتهِ للفلبين، حيثُ ذكرنا في التَّشْبيهات تشبيهه بابتسامات شعبها منذ أول دخوله لمطار مانيلا، ثم يذكر الصِّفة العامَّة لما يراه في الآخر في هذا البلد، وهو يريد أن يؤكِّد من نظرته عن الآخر.

فيقول عن شعب الفلبين: "يضربون مثالا يحترم ويحتذى به في احترام الآخر وتقديره منذ الوهلة الأولى، وهنا مكمن جمال هذا المجتمع، تلك الصُّورَة وتقديمها في ألوانها الطَّبيعَة التي ابتدأت من مطار مانيلا"[34].

ويظهر تصوير الآخر في هذه البلاد بقوله عنهم:"إن سلوك البشر في الفلبين تتزاوج فيه بساطة أهل الريف وكرمهم، وبشاشة أهل المدن ومرحهم، فهناك يبادرك الناس بالتحية، كل آن كأنك صديق قديم عاد من سفره إلى دياره الأليفة.. وفي نهاية الرِّحْلَة يتحدث عن الآخر بقوله:" ثبت ما لدي من صورة ذهنية عن هذا المجتمع، فالطيبة والحب والتعاطف الوادعة والهدوء هي طابع المجتمع، وهذه الصُّورَة بدت لي واضحة حين التقيت بالناس في الشوارع والمكاتب والبيوت والمساجد والمزارع والحقول والأسواق"[35].

وقد تأمل في وجوه الناس كما أسماها الصَّغيرة النحيلة، والتي كان أصحابها لا يتناولون طعاما مثلنا، أجدهم رغم الفقر يبتسمون لي حين أقف، لأشتري منهم شيئا بدراهم معدودة، أو حتى حين لا أشتري، يضعون أكفهم ويحيون في امتنان شديد إذا وضعت في أيديهم ورقة نقدية ثمن البضاعة التي اشتريتها، فهم شعب ممتن على الدوام، كما يسمي أهلها بلدهم ببلد الملائكة وقد تصدق ذلك بعد أن تعرف أن الفلبين أكبر مورد للممرضات على مستوى العالم، ويعدون شعبا اجتماعيا للغاية، ويقضون أكبر وقت ممكن مع العائلة والأصدقاء، كما إنهم يبقون على اتِّصال دائم من خلال تبادل الكثير من الرَّسائل النَّصيَّة، ممَّا جعلها تسمَّى عاصمة الرَّسائل النَّصيَّة"[36].

ووصف شَخْصِيَّات الرِّحْلَة سواء في المدينة المرتحل إليها، أو شَخْصِيَّات الرِّحْلَة أنفسهم، تضفي على قارئ الرِّحْلَة الأنس، وفهم شَخْصِيَّات البلاد المسافر إليها، سواء أكانت لمسات وصفة جسمية أو نفسية. يقول عن وصف أحد شَخْصِيَّات مدينة مقدونية: "استوقفني رجل طيب قرأ ببساطة وثقة أحوال الناس هنا بشكل عام، والمسلمين بشكلٍ خاصٍّ، وأنا منصتٌ بكلِّ جوارحي محاولًا استكشافَ المكَان وإنسانه، وطبيعته وبلا مقدماتٍ، اخترق مسامعي صوت الأذان، والذي ما طربت لنداء مثلما طربت حينها، صليت العصر في مسجد من الحجر ترتفع مئذنته عدَّة أمتار، فتجمع حولي بعض المصلين مرحِّبين يستعيدون ذكرى الوجود الإسلامي الذي شيّد هذا المسجد قبل نصف قرن من الزَّمَان"[37].

ويتميز الكَاتِب بدقته في تصوير شَخْصِيَّات البلد المزور، يقول عن أهل المدينة القديمة بمدينة (بودفا): "يجلس الباعة على أبواب متاجرهم ينادون المبتاعين، كما أن النظافة عنوان هذه البلدة وسمة مرافقها التي تغبط على أهلها المخلصين لها الحريصين على بقائها قبلة للسائحين، واللافت للنظر أن أهلها متعاونون جدا مع

القادم إليهم، فهم يقدمون المساعدة بدون تردد بل قد يترك أحدهم عمله، ويذهب معك ليخدمك"[38].

ووصفه لشَخْصِيَّات البلد المزور تعنى بالجانب الجسديّ والنَّفسيّ. حيث يقول عن أهل قرغيزستان: "ويكتمل الثَّالوث بوجوه حسنة سكنت ملامحها الطيّبة والنقاء، وابتسامة تستكنُّ في وجوههِم وطيبة مجسَّدة في طباعِهم وسلوكيّاتِهم وتعاملهم معك، كل هذا ما هو إلا انعكاس جلي للبيئة المحيطة بهم"[39].

ويتعمَّق في دراسة شَخْصِيَّات الرَّحلَات من الأفراد إلى القبائل. فيقول: "دفعني الفضول للاقتراب من عالم القبائل القرغيزية التي تعد أيقونة هذا البلد وأهم مكوناته، فأوكلنا لمرافقنا ترتيب زيارة لمرابع تلك القبائل التي عرف عنها كرم الضِّيافة والاحترام، وتكلموا عن ماناس"[40].

وقد يميّزُ الدّغِيريّ شَخْصِيَّات كل مدينة عن مدينة أخرى، فحتى الفوارق الدقيقة بين شَخْصِيَّات أهل كل مدينة فتتضح مثل هذه الصفات في طبائع وسلوكيات جزيرة الزمرد. يقول: "يتواصل الناس في مدن هذا الجزيرة بالابتسامة والمرح، بينما تنكرك مدن أخرى قريبة مثل لندن وباريس، وتشعرك بأنَّك هباء، وضائعة، وأنك وحيد وزائد عن حسابات المدين، وعجز أهلها عن التواصل وسيتضاعف الإحساس بالألفة والدفء في دبلن عاصمة إيرلندا الجنوبية، وبالفعل تأكد الإحساس منذ دخولي دبلن التي بدت أكثر مرارة ولطفا، ولسكانها حضور مختلف عن سكان بلفاست"[41].

وقد يصفُ الكَاتِب مشاعر أهل البلد تُجاهَ بلدِهم، ومقدار حبهم لتلك البلاد، كما ذكر ذلك في وصف محبة أهل جزيرة الزمرد. عن مدينتهم بقوله: "إن حب الإيرلنديين لبلادهم هو حب أسطوري يتمازج في حبهم لأرضهم، واعتزازهم بتاريخهم وأكثر ما شدني هو تمسكهم بقوميتهم، وتراثهم لدرجة تجعلهم لا يتوقفون

عن الحلم بالانفصال عن المملكة المتحدة، ويمكن لمن يعيش بينهم أن يتبين هذه المشاعر بسهولة. فهم يقولون : "إن بلادهم تستحق بما تمتلكه من قدرات بشرية، وموارد طبيعية أن تكون حرة أو تعود إلى سابق عهدها دولة مستقلة ذات سيادة"[42].

وتجدنا في رحلات الدّغِيرِيّ ندرس أنثربولوجيا الشَّخْصِيَّات من خلال مروره على صفات أهل كلّ مدينة يزورها، حتى في الجزر يصف أهلها، عاكسا طبيعة الجزيرة الهادئة السَّاكنة على الشَّعب الذي يميزه السَّكينة والهدوء.

ففي رحلته إلى جزيرة مان البريطانية. يقول عن أهلها: "من سمات هذه الجزيرة ورقي أهلها الهدوء، لا تسمع ضجة الباعة ولا نقير السيارات الكل منصرف لوجهته في صمت يشع وجهه ببسمة وقورة، تمضي الحياة فيها رتيبة كالساعة ناعمة المخمل كل ما يخصها هو أنيق وراق مثل أهلها الذين لا تفارق البشاشة العفوية، وجوههم كحالة معظم سكان الجزر حول العالم، شعوب ودودة، وجوه كريمة وموفورة السعادة، لم لا وهم يعيشون في فردوسي أرضي، وكأنهم يخطئون عمدا أحد علماء الأنثروبولوجي الذي أخبرنا أن الجزر المعزولة بالمياه ليست مكانا للمباهج والسعادة دائما"[43].

ثم ذكر تميز أهلها بلغة بخلاف اللغات الأخرى"نحن لا نفخر بالانكليزية ولا الاسكتلندية ولا الايرلندية ولا الويلزية، نحن نفخر باللغة المنكية المعروفة بلغة ماكس الفيلية، والتي اندثرت بوفاة آخر شخص يتحدث بها"[44].

ويذكر السِّمات الأخلاقيَّة لشَخْصِيَّات الرِّحْلَة، كأن يذكر ما يقدمه موظف الجوازات. فيقول: "وإذا به يهدي كل من يختم جوازه زجاجة فاخرة من النبيذ الجورجي كهدية ترحيبية، وهذا غير مستغرب فهي كما أشارت الدِّرَاسَات التَّارِيخِيَّة أنها مسقط رأس النبيذ، وعندما وصلت إليه بادلني التحية، ورحب بي وبادرته بعدم

قبول هدية وقدر ذلك.. ولا ينتقل من مدينة إلى أخرى إلا شارحا دخائل نفوس الشعب، وواصفا الملامح الخارجية. يقول عن الشعب الجورجي: "يحتاج لرصد وجوه الناس وتفاصيلهم، كَلِمَاتهم وإشارتهم، فالحياة الاجتماعية تختلف من مجتمع للآخر، حيث تحكمها مجموعة من العادات والتقاليد التي تكشف لاحقا أنها نسبية من مجتمع لآخر حسب تكوينه، وهويته، ونمط العيش فيه. ففي جورجيا تنفست الأماكن، وخطوات لا تمل كل ساعات المشي، بل تتسابق؛ لاكتشاف سحر المِكَان وأهله في طبيعتهم، وفي بعض عفويتهم، لآلفة تسمعها أكثر من الروسية، أحببت كل وقتي بينهم، وأنا أتحدث معهم بلغة الإشارة، في غالب أوقاتي، وأكثر ما لفت انتباهي في هذا الشعب كرم ضيافته، وحسن استقباله بابتسامته العريضة، فهم يحبون الضيف، ويعتبرونه هدية من الله"[45].

ويختم وصفه لجورجيا، وإعجابه بأهلها في رحلته؛ ليعطي نتيجة الزيارة بقوله:" لعل ما ميزها عيش التجربة الفريدة بين مكانها"[46].

يصور الكَاتِب أسرع وسيلة لاكتشاف الشعوب وما لديها التسكع في الميادين، ومجالسة الناس ومخالطتهم.

يقول:

"الإنسان الذي وجدته في سلوفاكيا توأم الإنسان التشيكي"[47].

ويختم تنوع شَخْصِيَّات الرَّحلَات بشَخْصِيَّات رحلته إلى هنسلكي، بقوله: "الأهالي يبدو على وجوههم الغبطة والانشراح، فما علاقة هذه الشمس البديعة بمثل هذا السلوك، ولا بد أن أعترف أن للمدن مزاجا كمزاج البشر، ولكن له قاعدة ذهنية نفيسة بالضرورة، وهنسلكي تتملك عندما تعيشها"[48].

رابعًا– خصائص الصّورة في رحلة الدّغيري:

1- اللَّوحاتُ الكُلِّيَّة والجُزْئِيَّة:

تنتشر في رحلات الدّغِيرِيّ الكثير من اللوحات الكُلِّيَّة الجُزْئِيَّة من التَّشْبيهات والكِنَايَات، كقوله: "من ساحل البحر المتوسط كنت أنظر إلى الأسوار، إلى صفوف الأزهار الشفافة، إلى التلال العصية على التسلق، إلى البيارق التي ترفرف فوق الأبراج الحجرية، إلى الأزهار التي تتسلق جدران القصور البعيدة، أو تحتضن البيوت المطلة، إلى اليخوت الرَّاقية الرَّاسية في مرافئها، تدرج البيوت البيضاء على جبلها، وتناثرها على شكل تجمعات تمنح الجبل جمالا وتنوعا، وتتلألأ تلك البيوت من بعيد، وكأنه الجبل، كله يلوح لي بمنديل أبيض مشتعل"[(49)].

ويختم هذا الوصف بصورة استعارية يقول فيها: "وضعتني هذه الرِّحْلَة على جناح من المتعة والتثقف".

وينقلنا الرحال في كل بلد يزوره إلى اِسْتِعَارَات منوعة كقوله عن أسمرة عاصمة أرتيريا: "دخلت أسمرة مع بزوغ صباح ندي، وقد طار الحاضر من تصوري، وظننت أن التاريخ قد أشرع إلى صفحاته، أو أن التاريخ سكن أسمرة، ولم يتحرك منذ عقود"[(50)].

ويجمع في هذه الصُّورَة الاستعارية مع التشخيص، الذي قدر فيه التاريخ، وجعل فيه مشرعا صفحاته، أو ساكنا لهذه المدينة الهادئة، ويدخل في نقل معلومات تقريرية تَارِيخِيَّة وجُغْرَافِيَّة عن البلاد، ويعود إلى الصور الاستعارية والتَّشْبيهات مشتقة مع بعضها في وصف المدينة فيقول: "تغريني صباحات أسمرة الندية بالبكور، فهي تتفتح كزهرة بيضاء على حافة وادي الصدع العظيم، مع الارتفاع، مما جعلها واحدة من أعلى المدن في أفريقيا أطلالها وذكرياتها تثير الشجن في مدينة يأتيها الزائر متأملا"[(51)].

ويكمل سرده من ذكريات أرتيريا فيقول في صورة تشخيصية رائعة: "لا دليل يعين سوى شتات مما سجلته الذاكرة، أو قرأته في مصادر شحيحة، أو بعض القصص الهاربة من واقعها"

ويكملها بتناص لقول جوته عن هذا الموضوع بقوله: "إذا استطاع التاريخ أن يصمت فهناك آلاف من الحجارة شاهدة"(52).

ويعد التشخيص من أهم الصور التي اهتم بها الأديب في تصوير الكثير من البلدان، فلقد امتدح أدنبرة أحد مدن إسكتلندا، وأنها مدينة التاريخ والأدب. فيقول: "ليس لأدنبره صاحب، بل تهب نفسها إلى من تختاره، و لا تمنح نفسها بيسر لأي عابر، و لا تغير مزاجها لأجل أحد، فهي تمنح نفسها حرية محبتك، أو النفور منك، فإذا أحبتك أتاحت لك أسرارها وحكايتها بشكل يغريك بأن تأتيها مرارا كلما عبقت الذاكرة بشيء من رائحتها، فتصير كعاشق لا يستطيع كتمان شوق، ولذا بقيت لحظاتي التي قضيتها فيها عصية على النسيان"(53).

فوصف أدنبرة وكأنها عروس محبة، ووصف من يتعلق بها كعاشق، والتشخيص يتزامن مع وصف المكَان وإظهار طبيعته وجمالياته في كل دولة، ففي حديثه عن (ألماتي) يقول: "ولهذه المدينة مرأى حسن، فهي واقفة في سهل فسيح تحيط به جبال شامخة، لا ينقطع الثلج عن قممها، تحتضنها بنوع من الحنان، وكأنها تريد أن تحميها من سوء محتمل"(54).

ويعد التشخيص من أهم الصور التي تتفاعل فيها الطَّبيعَة مع ما يشاهده الرحال، فمنذ أن رأى شواطيء الفلبين في رحلته إليها، مضيفا إليها تشبيهات أخرى في قوله: "هنا بدا لي شاطئها فاتحا ذراعيه برملته البكر، ومياهه الزرقاء، ثم تجلت أشجار زيت النخيل كأنها بساط من الزمرد تتشابك سعفاتها حد العناق

حاجبة ما تحتها، استقبلتنا وجوه مبتسمة ابتسامات صادقة لكل الإحساس بالأمان الذي يندر أن يكون سمةً لبلد يتنفس فيه ملايينُ البشر"[55].

ومن الصور الجُزْئِيَّة التشخيص، وصفه لبودابست. يقول عنها: "تضع عينا على (بودا) وعينا على (بست)، وترخي شعرها في نهر الدانوب، وتحمل على كتفيها الجميلتين قلاعا تعد من أشمخ قلاع أوربا، وأكثرها هيبة وجمالا، أخذنا الطريق في اتجاه عاصمتها التي أخذت ترحب بنا مع دخول الليل، إذ كانت الشمس آذنت بالمغيب عن المدينة"[56].

وتظهر لدى الكَاتِب علاقة وطيدة بينها وبين المدن، وهي علاقة الحب والكره. فيقول: "نحب المدن عندما نحس أننا نعرفها، ونكره المدن التي نحس فيها بأننا غرباء، وبودابست تحمل نفسها إليك حتى لا تعود مضطرا إلى السير فيها؛ لتراها"[57].

وما أجمل أن يكون الدانوب نهرا يتلوى بغنج، وهو النهر الذي يفصل مدينة بودا عن مدينة بست اللتين اتحدتا، وأصبحتا مدينة واحدة.

والتَّناصُّ لا يخلو وجوده في رحلات الدّغِيرِيّ. حيث يقول في رحلتهِ البحريَّة بنهر الدانوب: "تذكرت مقولة هيردوت الشَّهيرة عن مصر بأنها هبة النيل، ورددت في سري أن بودابست هي هبة نهر الدانوب، النهر الخالد الذي احتضن العديد من القرى، ونمت على ضفافة عدة عواصم، مما جعل البعض يطلق عليه نهر العواصم"

ويحلق الكَاتِب جماليا حين يصل بالطائرة إلى جيبوتي، ويقول عنها واصفا لها: "لا أدري هل تتوسد ذراع البحر أم البحر يتوسَّدها؟ تتلقى حزما من الضَّوء الفِضّيّ الذي كان يحيل مياه بحرها الساكنة إلى مرآة مذهلة حتى وصلت المطار؛ لأرى طائرات الأمم تجثم في مرابضها، وكأنها حيتان ظلت طريقها من البحر لليابسة"[58].

وأن يجعل الكَاتِب كل ما حوله في الطَّبيعَة صوتا، فإنه يعتبر من الصور الفنية في قوله عن طبيعة قرغيزتان يقول: "أسرتني روعة المِكَان تعرفت على كل الأصوات، الماء الذي يجري، وأصوات العصافير والخيول، أجدني أردد في قلبي المفعم بهذا كله: "ليكن الله في عوني إزاء هذا الجمال كله، الخيم القرغيزية التي تظهر للرائي كنباتات الفطر المتناثرة"[59].

ونظرات الكَاتِب التَّأمليَّة تجعل له من الخَيَال سعة، فهو ينظر إلى المدينة بنظرة تجعله يصور جماليَّاتها بصورة فنيَّة. يقول: "تسللت أشعة الشمس ممتزجة مع رائحة الياسمين، وغمرت حجرة الفندق، فنهضت ووقفت على سياج الشُّرفة، ونظرت للمدينة التي تبدو منسجمة مع الطَّبيعَة حولها تطل على البحر بزرقته، والخضرة الداكنة تتخللها البيوت ذات الأسوار القصيرة أذرع الرافعات في الميناء، وحركتها الدؤوبة في تفريغ السفن، ويحملها أشبه ما تكون بحركة أذرع طفل يرقد على فراش أزرق يضمه غطاء أخضر"[60].

ويصوِّر الكَاتِبُ الأرضَ للبلد المزور، بعد مجاورة الآخر، ومحاورة نفسه، ففي رحلته للصُّومال كان استفهام المضيفة مستغربة من زيارته لهذه الأرض بدأ فيها الكَاتِب مجيبًا بحوارٍ داخليٍّ، مليء بالصور الفنية في حديثه عن هذه الأرض يقول: "استقبلت همسة مضيفة (علي) أترغب في زيارة أرض الصومال، فهز هذا السؤال أحلامي الهاجعة، واستنهض فضولي القديم والحديث لرؤية تلك الأرض التي تسربلت بالمخاطر وتحجبت بالكوارث، فكانت أرضها مقبرة لحروبها ومجاعاتها، وبحرها مرتعًا لقراصنتها، فكان السؤال باهِتًا عن أرض حيرت أسرار المهتمين والمراقبين، فظلت تتأرجح بين الحقيقة والخَيَال"[61].

وقد ينوع في الصُّورَة بين الاِسْتِعَارَات والتَّشْبيهات والكِنَايَات في وصفة لصورة بلد بعينها. يقول عن الصُّومال في صورة فنية أخرى: "الصومال تبدو حكاية ممزقة،

تعيش اضطرابا وشتاتا داخليين غير قابلة على استيعاب الصدمات التَّارِيخِيَّة المتتالية، فهي وجه مقسم إلى نصفين بين جنوبي غير مستقر، وشمالي أكثر استقرارا، وينتقل من الصُّورَة الفنية إلى ذكر الموقع الجغرافي، والصِّفات السُّكانيَّة، وحالة التضاريس لكل منطقة من مناطق الصومال، ذاكرا رؤيته التَّارِيخِيَّة حول هذه المدينة، معلنًا عن وضعها في العصر الراهن. يقول: "ظلمتها صفحات التاريخ والجُغْرَافِيَّة المنزوية، فيكثر من الناس من لا يعرفها، ومع ذلك فهي مستمرة في تحقيق حلمها".

2- المُعْجَمُ اللُّغَوِيُّ في الصُّورَةِ:

أ- ثراءُ المُعْجَمِ:

تظهر كَلِمَات الرحال في صورة بيانية، مستخدما المعْجَم الشِّعريّ في الوصف، حيث يختم رحلته لألماتي بما بدأها، فكانت العتبة (ألماتي-الحبّ والعطف) وختمها بقوله: "أودع ألماتي بابتسامة على وجهي وألم الفراق في قلبي، شعرت بالكثير من الحب والعطف في وصف هذه المدينة"[(62)] ختمها بكَلِمَات العاشق المحبّ.

وتظهر كثير من الألفاظ التي يستخدمها الرحال للصورة. يقول عن الفلبين: "جزر فروسية تتوسط حزام الأرض، وتتفوق في سحرها على إمكانات الخَيَال"[(63)].

وقد يبدع الكَاتِب في انتقاء مفرداته وصوره في وصف إحدى المدن بطريقة مبتكرة إبداعية، لم تكن كتصوير ما قبلها من الكَلِمَات والمفردات في وصف الدول الأخرى. يقول عن مدينة مقدونية: "إلا أنني أعترف أن مقدونيا الدولة الوحيدة التي لم أكتب عنها فور رجوعي منها في ذلك الوقت، ربما لأنني كنت مصابا بالتخمة من المشاهد الآسرة التي مررت بها، ومرت بي في دول البلقان المجاورة لها"[(64)].

ومن الألفاظِ التي صور بها بيروت حين يقول عنها: "حين دخلنا المدينة العاشقة لنفسها، كأنها نوتة موسيقية منسجمة الأنغام، ويستخدم اللفظ المناسب

لصـورة الحـرب في لبنـان. ويقـول: "وفي نفـس المشـهد تـرى أطـلال بنـايات قديمـة، تقصـف عـين مـن يراهـا، نشـاز بصـري أثـرت عليهـا آلات الحـرب الأهليـة، وكـان اللبنانيون تركوها؛ لتكون شواهد ومزارات تتعلم منها الأجيال الجديدة، فتذكرت أن بيروت كانت سيدة التمرد الأولى بين العواصم العربية، وكانت تهز عالمها العربي بالمفاجآت المتلاحقة سنين كثيرة متلاحمة مع البحر، زاحفة نحو الجبل، أدع نفسي فيها تتأمَّل العابرين بحريَّةٍ، وتتمعن في أنحاءِ المِكَان بلا قيود، وتخفي بيروت خلف كل جدار مكتبة"(65).

وقد يستخدم الكَاتِب في صوره بعض المصطلحات على مواقع معينة، ثم يفرقها بالصُّورَة الفنية المناسبة، يقول في رحلته لجيبوتي عن بحرة: "فرضت نفسها في خارطة سفري بشكل مباغت، فاسمها كان يتردد صداه عميقا في ذهني، وفي أثناء سيرنا بالطريق نصعد وننحدر مررنا مملحة "لك عسل" الراقدة في أحضان الجبال، بحيرة مدهشة محاطة بالسراب تنام هادئة في مهدها الأزلي، والريح تهب عليها بنعومة مالحة، وكأنها تريد أن تزيدها ملحا"(66).

وقد يطلق الكَاتِب على بعض المدن مسميات تناسب ما يراه. كأن يقول عن مدينة في جيبوتي مدينة العاطلينَ أو مدينة الكُسالى، وجزء من هذا الكسل يبدو جليًّا على شبابٍ كثرٍ جالسين فيها"(67).

والمفارقات واضحة، والمقابلات أيضا في وصف هذه المدينة، حيث يقول: "في جيبوتي يواجهك عالم يدهشك بقدر ما يغيظك، في لحظات يحملك إلى جو يشبه الأحلام، وفي لحظات أخرى يضعك أمام واقع تتمنى أن تهرب منه، طقس ثقيل الوطأة، رجال مستسلمون للكسل تحت أشجار منتشرة على طرقات غبراء لا أرصفة لها"(68).

ومن الألفاظ التي يستخدمها الكَاتِب كمثال للصورة. قوله: "العناق الخالد بين البحر والجبل، بودفا مدينة الحجر المائل للصفرة، مدينة تستلقي على تلَّة كأميرة من أميرات الشرق في القرون الوُسطَى"(69).

وقد يختارُ الكَاتِب بعضَ الألفاظِ المناسبةِ لبعضِ المدنِ التي جمعَها مع الصُّورَةِ صفةً مناسبةً في استعارةٍ متناسبةٍ تعبِّر عن جمالِ مدينة ما، ويشبهها بقوله عن جزيرة الزُّمرد: "في النهاية أودع هذا الفردوس، مثلما حصل لي مع أمكنة آسرة أخرى، ولعل ضرورة الوداع هي التي تزيد من بهجة اللقاء، فمتعة السَّفر (كرة) تتقاذفها اللِّقاءات والوداعاتُ، ولذا علي أن أستبدل أمكنة ساحرة بغيرها؛ لألتقي بأخرى أكثر سحرًا، وحتى الأمكنة التي لا تسحرني تستحق اللّقاء أيضًا.

في إيرلندا يمكن أن تعيش نوعا من الصعلكة الفطرية، كونك تسير فوق هذه الأرض الجميلة الملونة بين درجات اللون الأزرق والأبيض والأخضر للبيوت والبحر وللسماء والشجر، وانعكاس الشمس عليها، فكل هذا يضعك في مواجهة مع الزيف والحياة المصطنعة، كما ستقودك لاكتشاف نفسك، إيرلندا اكتشاف لشيء مفقود بالفعل، لطبيعة موحية مثبتة على مشهد قديم، ومتجدد بحيويتهِ"(70).

ويستخدم الكَاتِب الكَلِمَات والصُّور الفنيَّة المناسبة لكلّ مدينة يزورها من صور مختلفة، كقوله عن جورجيا: "أجمل ما فيها الضّياع في طرقاتها" ثم يعبر عن العاصمة الجورجية تبليسي بقوله: "عند وصولي قطار العاصمة الجورجية أدركت سفر الكَلِمَات والعوالم المتنوعة، أدركت الرِّحْلَة إلى معرفة المجهول، حتى أدركت أن جورجيا لا يمكن أن تكتشفها إلا من خلال الضياع في طرقاتِهَا"(71).

ونجد عند الكَاتِب بعض الألفاظ الموحية بإعجابه ببلد ما، كلفظة (تسحرني) إذ استخدمها في تعبيره عن أكثر من بلد، رابطًا بين السِّحر الذي يشدُّه إلى هذا

البلد، وبين الصُّورَة الفنية التي تشخص البلد كصُورة فنّيَّة معبرة، وكل ذلك للتَّعبير عن المشاعر التي يحسُّ بها تُجاهَ هذه المدينةِ.

يقول عن تبليسي: "تسحرني المدن التي تغفو على همهمات نهر، وتنعكس على نهرها زرقة السماء، وأشكال الغيوم، بينما يملؤني إحساس الكدر في بعض المدن التي لا تعانق نهرا أجدها كئيبة وضريرة القلب، فها هو وسط مدينة تبليسي يتماوج مع نهر كورا الرقيق، الذي يعبره جسر السلام ذو الشكل الهندسي المميز، وشوارع المدينة لا تزال تتثاءب رافعة عن جفنيها سهرا طويلا من ليلة أمس، يحرسها شارع روستافيلي الذي يعد من أشهر شوارع العاصمة تبليسي"(72).

وما أجمل التشبيه حين يكون له مغزى كما يقول عند وصف جبال القوقاز: "كان الجمال يفوق الوصف وسط سلسلة جبال القوقاز ووديانها تسلمنا الجبال لبعضها البعض، وكأننا وديعة يجب أن تحافظ عليها، لم يكن الطريق طويلا، ولكنه يتولى فوق القمم، ويلتف عليها كأفعى كونية بطول لا متناه"(73).

ويختار صور التَّشْبيهات بأسلوب بياني منوع، كما ذكر في صورته الفنية عن مدينة التشيك: "ورأيت ما لم أر البارحة منظر تلال مترامية يتلألأ الندى على أوراق أشجارها، فيها مدينة الحب وأهله، لا يوجد فيها بهرجة، بل عبق جميل من رائحة الهدوء والصوت، أحياؤها تلونت مبانيها، وأصبحت للفرح تغرد، لا تمل الخطوات كل ساعات المشي، بل تتعانق في سحر المِكَان ولونه وأهله في طبيعتهم وفي بعض من عفويتهم"(74).

واستخدام بعض الألفاظ التي تعبر بشكل أو بآخر عن جمال الصُّورَة التي اختارها الكَاتِب حيث يختار المدينة (هلسنكي) مدينة تغويك بدفقها الثقافي، ومفاجآتها السَّياحرة، وعلى الرغم من ارتدائها لونا واحدا هو الأبيض، إلا أنها تزداد نضَارة وتأنُّقًا، والشَّوارع متسعة باتساع خيال أهليها، أينما تلفت يرافقني جمال لا يفارق

ناظري، والإيجابيَّة منتشرة في سهولِها وأشجارهَا، الحركة فيها مستمرة بلا إزعاج تحت شمس بيضاء ملأت الشارع الفسيح بضوئها النَّاعم، وكأنها انغسلتْ للتَّوِّ بماء بحر البلطيق"[75] ويختم الكَاتِب تصويره الفني للكتاب ولرحلته عن هذَا البلد بما يشعر به ويتأمله حولها، وحول جمالها مخاطبًا كلَّ الطَّبيعَة من شمس وجبال، كصورة فنيَّة متحرِّكة. يقول: "كنت أريد أن أنام ولكن ضوء الشمس يوهمني بأنَّ الوقت لا يزال باكرًا"[76].

ب- دقَّة اختيار الكَلِمَات المصوِّرة للمواقع والأشخاصِ وانتقاء الكَلِمَات المعبرة عن الحدثِ:

وللدّغيري دقَّةٌ في اختيار الوصف والصُّورَة لكل دولة يزورها، ونظرته الخاصة لها، فقوله عن اسكتلندا أكبر دليل على دقته في اختيار الصُّورَة المناسبة. يقول: "كل زيارة تجذبني إليها أكثر من سابقتها، فكل شيء فيها له لون الزمن، وطعم الأيام، وغير الليالي، ففي كل مدينة وقرية تصطف مواكب الذكريات، وتتدفق وهي تروي حكايات القرون الغابرة قريبها وبعيدها، وكأنني أقف في متحف يقوم في الهواء الطلق، فالتاريخ فيها يرافقك أينما تسير، وكأنما تلفت، فلا عجب أن يكون لها تاريخ حافل للحضارات المتنافرة، كَلِمَات عبور الملك والجيوش على أديمها وشطآنها الشاسعة"[77].

وتظهر دقة اختيار الكَلِمَات المصوّرة للمواقع في عتبات المدن التي يزورها الرَّحال. فقوله مثلا عن مدينة (ألماتي): الحب والعطف في وصف مدينة ألماتي، وربط هذه العتبة بداخل الرِّحْلَة من بدايتها منذ وصوله المطار في قوله: "نزلنا المطار، وفتحت لنا مدينة ألماتي التي تعنى باللغة الكازاخستانية (مدينة التفاح) ذراعيها لتحتوينا في أحضانها وجلالها وحضورها الأخاذ، والمناظر الطبيعية تترى نظيفة لامعة براقة، فتبخرت خواطري ومشاعري السلبية القديمة، وتداعت كل تحفظاتي أمام هذه المشاهد التي تتلاحق أمامي"[78].

وحـين يسـتخدم في نهايـة رحلتـه لمالقـة كَلِمَـات تـوحي بالبعـد الثَّقـافيّ للبلـدِ، ومعبرة عن المدينة. كقوله:" مالقة التي انتهت رحلتي فيها، ولكن عبق تلك الأيام وبهاء شبابها لم ينته من نفسي ولا من ذاكرتي"(79).

وشـعور الكَاتِـب وعمـق إحساسـه يظهـر في وصـفه للـرحلات وصـفًا دقيقًـا، فكأنَّه يعايش مشاعر المدينة من خلال دقته في اختيار الألفاظ، يظهر ذلك واضحًا في وصـفه التشخيصـي لرحلتـه إلى جيبـوتي، فمـن خـلال أول نظـرة لهـا بعـد اجتيـازه المطـار، يـربط بـين مـا يشـعر بـه تجـاه هـذه المدينـة، وبـين موقعهـا الجغرافي والمعلومـات الجُغْرَافِيَّة الكثيرة.

فيقـول: " تبـدو علـى المدينـة سمـات الاكتئـاب والكمـد، إلا أن موقعهـا الإستراتيجيّ جعلها من أهم موانئ العالم، كما تمتد فيها شرايين الأسفلت إلى العمق الأثيوبيّ والصُّوماليّ كشرايين الجسد النابض بالحياة، واستيقظت أرقب في صمت واجب بزوغ النهار على جيبوتي النائمة متى بدأت أصوات الحياة تعلو من بيوتها ودروبها"(80).

ومن جماليات رحلات الدّغِيرِيّ التَّصْوِيرية مناجاته النفسية وحواره الداخلي لها، منسقا العبارات المناسبة لوصف مشاعره للبلد التي يزورها. يقول: "كنت أشعر بأمواج البحر الأدرياتكي وهي تصدر على الساحل وكأنها تناديني، كان الفضاء مثيرا والدنيا لها طعم آخر، تركت مدينة بودفا الخاتلة تحت الجبال وفي نفسي شيء منها، لا أعرف السبب في أن المدن الضيقة والصغيرة دائما ما تكون مبعث حميمة، ربما لأنها لا تحتاج لجهد مضاعف في الإحاطة بها، وربما لأنها تعطينا نفسها بدون خوف منا، فقلت لنفسي: إن الكون مليء بالأنغام، وإن لكل مدينة ومكان لحنًا مختلفًا عن الآخر، ويجب علي أن أسافر لكي أستمتع لتلك الألحانِ"(81).

ج- التّصوير بالكلمات والأساليب التي تصوّر الشّخصيات والأحداث:

الدّغِيرِيّ كرحال يجمع في تصويره بين الزَّمَان والمكَان والشَّخْصِيَّات، وتأثيرها على الأَحْدَاث، والتاريخ والحدث على الشَّخْصِيَّات، نجد ذلك واضحًا في تصويره لمالقة حين صورها في عتبة الرِّحْلَة، وحتى تحليل وتأمل شَخْصِيَّات المدينة التي أسماها (الحكايات في مدينة مالقة مبتورة دائما) فيقول مصوّرًا هذه البلاد: "أستدعي التاريخ عبر بناياتها التي يشير ما تفيض به وجوههم تعبيرا عن روح المدينة وأسرارها بلا جدوى، و كأنها مدينة عبور للمهاجرين، لذا لا يعمقون وجودهم داخل المكان، و لا يعطون الفرصة لكي تتكون مراكز للذكرى، فقد تتبدى الحكاية هنا، ولكن!! نهايتها في مكان آخر، لذا فالحكاية هنا دائما مبتورة"[82].

وقد يرسم تاريخ الدولة بصورة فنية مليئة بالتشخيص، مستدلا بتاريخ هذه البلاد، ذاكرا أبرز الشَّخْصِيَّات والأَحْدَاث التَّارِيخِيَّة التي مرت بها وفيها، مثل حديثه عن بيروت حين قال عنها: "مدينة صنعت التاريخ، وشغلت الناس، وشغلت التاريخ على مدار نصف قرن، بل أتحدث عن مدينة الثقافة والحب التي اكتسبت سحرها من بلاغة الكَلِمَات التي قيلت عنها من قبل شعراء وأدباء مشهورين، فهي موطن جبران خليل جبران الذي تغزل بها في روايته المشهورة قبل أكثر من مائة عام (الأجنحة المتكسرة) فلا تكف بيروت عن اختيار حكايتها وأفكارها، وكلما زارها زائر، وارتحل عنها سائح عبأ مخيلته بصور ومشاهدات وتسميات، وظل ينادم المدينة ويسترجع ما شاهده فيها، فتتحول بيروت إلى نصٍّ مفتوحٍ على كلِّ الجهات والاحتمالات"[83].

ويصف الكَاتِب دقائق شَخْصِيَّات أصحاب الرَّحلَات، والتناقضات التي يشعرون بها. يقول عن أناس بودابست: "الناس لا يبدون سعداء، ولكنهم ممتلئون بالحيوية"[84].

ويصف الكَاتِب أنماط الشَّخْصِيَّات وتنوعهم ولغاتهم، ويرسم هذا التداخل رسما دقيقا يوضح تفاصيل الأجناس واللغة. وغيرها. يقول: "وجدت في جيبوتي تفاصيل تفاوت أصول سكانها بجانب أهلها الأصليين بين أوربيين واضحي المعالم، وأفارقة تنبيك ألوانهم وأنوفهم بهويتهم وعرب لا تخطيء العين ملامحهم، يعيشون في انسجام، ويتبادلون المنافع بينهم، تجمعهم اللغة الصومالية المحلية، وبعض العربية والفرنسية، حيث أكسبها هذا الخليط الثراء والمرونة في التعامل معهم، بعدما خرجت من زحمة السُّوق ورائحة الأجساد المتفرقة تنتشر بين الجموع"(85).

ولم تخل رحلات الكَاتِب من وصف نساء بعض المدن، كما وصف نساء جيبوتي، "مساحات كبيرة من الأراضي الصحراوية غير الصالحة للاستقدام، طقس ثقيل الوطأة، رجال مستسلمون للكسل تحت أشجار منتشرة على طرقات غبراء لا أرصفة لها، ونساء هنا وهناك يبعن القهوة والقات لمن يريد، ومع كل هذا إلا إنه لا يحجب عنك ما يتمتع به الشعب الجيبوتي من ألفة ولطف ومحبة، شعب مبتهج يعيش الفرح رغم الظروف لأن يكون للأجانب في القواعد العسكرية"(86).

وقد تأخذ أحداث دخول المدينة حال الشَّخْصِيَّات يقول عن الصومال: "أنا أحتاج إلى أن أتذوق لذة الاكتشاف، وأن أسمع الروايات بألسنة الناس لا كما يذكرها الآخرون، فساعدني على ذلك الناس أنفسهم فهم أهل مودة وود، يحتفون احتفاء كريم بالقادم إليهم من البلدان العربية.. وذهب الكَاتِب إلى زيارة جامعة هرجيسيا. يقول: "فقابلوني بالحفاوة، وبالغوا بالاحتفاء بي، وكنت أظن أنني سألتقي بعدد قليل من الطلبة، فإذا بي قد غصت القاعة بالطلبة ينشط المتحدث برؤيتهم للكلام. فبرغم المعاناة والقهر إلا أن هناك الكثيرين ممن يؤمنون بما قاله الشاعر محمود درويش: "على هذه الأرض ما يستحق الحياة"(87).

ختم الكَاتِب هذه الرِّحْلَة بتضمين لقول درويش، وتكتمل عنده اللوحة الفنية بين التَّصْوِير بالكَلِمَات والأساليب، وتصوير الشَّخْصِيَّات في كل رحلة وبلد يزورها الكَاتِب، وقد نوع الكَاتِب في رحلاته بين المدن والجزر، وفي وصف كل منها عدَّة صور فنيَّة مميزة.

خاتمة البحث:

بعد دراسة الصورة الفنية في رحلات الدكتور مُحَمَّد الدغيري استخلصت من هذا البحث ما يلي:

1- أن الرحال جغرافي كان أو تاريخي، إذا كانت لديه الموهبة الأدبية الكافية، فباستطاعته.

أن يجعل من رحلته أيا أكان هدفها لوحة أدبية فنية تجعل من الرحلة صورا جمالية منوعة.

2- استطاع الدكتور مُحَمَّد الدغيري أن يبين من خلال كتابته لرحلته أن يكتب أدبا رحليا مميزا، اكتملت أدواته الأدبية، في عدة مؤلفات.

3- مثل الدكتور الدغيري أدب الرحلة، لرحال جغرافي امتلك الأدوات البلاغية، التي استطاع من خلالها أن يرسم الرحلة بأسلوب أدبي، فلا يشترط أن يكون الرحال متخصصا إذا امتلك تلك الأدوات البيانية، والحس الأدبي.

4- المعلومات الجغرافية والتاريخية اندمجت مع إحساس الرحال، وانفعالاته الذاتية، لرسم رحلات مميزة، يستفيد منها القاريء جماليا، ومعلومات ثقافية منوعة.

5- إنَّ كاتب الرِّحْلَة قادرٌ على بناء علاقات إنسانيَّة متعدّدة يتضمَّنها المكَان الذي يعدُّ مكوِّنًا من مكونات الرِّحْلَة، ومجالًا مشتركًا تتفاعل فيه الأَخْدَاثُ والمواقفُ، وتعطي الصُّورَة الفنيَّة النَّصَّ إبداعًا، مهمَّا تحدَّث عنها الرَّحَّالةُ.

6- بما أنَّ المبدعَ يتحدَّث عن رحلتهِ خاصَّةً، وأنَّ الرِّحْلَةَ في تعريف من تعاريفها ضربٌ من السِّيرة الذَّاتيَّةِ في مواجهةِ ظروفٍ وأوضاعٍ في اكتشاف معالمَ وأقطارٍ ووصفِها والحكم عليها، وعلى المجتمعِ فيها حكامًا ومواطنينَ، فهي في النِّهاية كلّ ما انطبعَ من ذلكَ وسواهُ في ذِهن الرحَّالة، عبر مسارِ رحلتهِ، سيشكِّلُ صُورةً لكلِّ ما في الرِّحْلَةِ من عناصِرَ.

7- مثّلت الدِّرَاسَات الرِّحْلِيَّة للدّغيري، عددا من الظَّوَاهِر في الرَّحلَات الأَدَبِيَّة، وأنَّ هناك مجموعةً من العوامل الشَّخْصِيَّة والمجتمعيَّة والفِكريَّة والسِّياسيَّة، أسهمَتْ في حضور عدة قضايا مهمة في الرَّحلَات، كما توَصَّل الكشفُ عن جوانبَ جديدةٍ من حياة الأديبِ، وبعض تفاصيلِهَا.

الهوامش والإحالات:

*** التعريف بالدكتور مُحَمَّد إبراهيم الدغيري:**

أستاذ جامعي بقسم الجغرافيا، جامعة القصيم، تنقل في مناصب إدارية كبيرة وكثيرة، أقام كثيرا من الورش التعليمية في بريطانيا، ومشاركات علمية وندوات منوعة في جامعات عالمية مختلفة، من كبار الجغرافيين العرب، له مؤلفات وإنتاج علمي كبير إنجليزي وعربي، وله كتب ومؤلفات واهتمامات علمية في الشؤون الاقتصادية، والنقل، والتنمية والأدب وغيرها.

حصل على جوائز تقديرية وتكريمية منوعة، من مؤلّفاته:

- كتاب (دول لا يزورها الغرباء-أ.د. مُحَمَّد إبراهيم الدغيري-أكتوبر2020، الدار العربية للعلوم ناشرون-بيروت-لبنان)
- قصَّة صورة 2018م.
- غواية السفر ونداء الكتابة 2019 م.
- دول لا يزورها الغرباء 2020 م.
- لوحات على جدار الذَّاكرة 2022 م.

1) عزة جدوع –الصورة والتشكيل البياني– البيان (دراسة في الانزياح الدلالي) مكتبة الرشد 1435–2014م، ط1، المملكة العربية السعودية، ص29

2) بشرى موسى صالح –الصورة الشعرية في النقد الحديث– المركز الثقافي العربي–1994 المغرب 2021م –1994م، ص43

3) شعيب حليفي– الرحلة في الأدب العربي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2002، مصر، ص266.

4) جمال نوال – جماليات أدب الرحلة عند ابن بطوطة –رسالة جامعية بمعهد اللغات والأدب العربي بالجزائر، السنة 2010–2011م، ص7.

5) منصور نعيمة – جماليات الخطاب في رحلة ابن بطوطة دراسة تحليلية– رسالة ماجستير ضمن مشروع الأدب الرحلي المغاربي–جامعة وهران–الجزائر–السنة الجامعية 2010–2011م– المقدمة.

6) مُحَمَّد الدغيري–دول لا يزورها الغرباء– الدار العربية للعلوم ناشرون–أكتوبر2020، بيروت– لبنان، ط1، 1442–2020، ص9

7) مُحَمَّد الدغيري، دول لا يزورها الغرباء، ص 17

8) المصدر نفسه، ص29

9) المصدر نفسه، ص35

10) مُحَمَّد الدغيري، دول لا يزورها الغرباء، ص58

11) المصدر نفسه، ص59

12) المصدر نفسه، ص89

13) مُحَمَّد الدغيري –دول لا يزورها الغرباء – ص116

14) المصدر نفسه، ص133

15) ينظر إلى ناصر بركة – جمالية توظيف المكان في أدب الرحلة. في مدينة الضباب ومدن أخرى لعبد الله الركيبي أنموذجا– جامعة المسيلة— الجزائر–دار المنظومة 2016

16) عبد الرحمن بن زورة: جماليات الصورة الشعرية لدى أمل دنقل– قسم اللغة العربية–جامعة بومرداس– الجزائر– دار المنظومة–2016م

17) مُحَمَّد الدغيري، دول لا يزورها الغرباء، ص8

18) المصدر نفسه، ص9

19) مُحَمَّد الدغيري، دول لا يزورها الغرباء، ص22
20) المصدر نفسه، ص27
21) المصدر نفسه، ص53
22) مُحَمَّد الدغيري، دول لا يزورها الغرباء، ص94
23) المصدر نفسه، ص101
24) مُحَمَّد الدغيري، دول لا يزورها الغرباء، ص125
25) المصدر نفسه، ص135
26) المصدر نفسه، ص140
27) مُحَمَّد الدغيري، دول لا يزورها الغرباء، ص14
28) المصدر نفسه، ص16
29) المصدر نفسه، ص 16
30) المصدر نفسه، ص21
31) مُحَمَّد الدغيري، دول لا يزورها الغرباء، ص 32
32) المصدر نفسه، ص40
33) المصدر نفسه، ص 46
34) مُحَمَّد الدغبري، دول لا يزورها الغرباء، ص 50
35) المصدر نفسه، ص55
36) المصدر نفسه، ص56
37) مُحَمَّد الدغيري، دول لا يزورها الغرباء، ص61
38) المصدر نفسه، ص90
39) المصدر نفسه، ص94
40) المصدر نفسه، ص98
41) المصدر نفسه، ص103
42) مُحَمَّد الدغيري، دول لا يزورها الغرباء، ص106
43) المصدر نفسه، ص120
44) المصدر نفسه، ص122

45) مُحَمَّد الدغيري، دول لا يزورها الغرباء، ص128
46) المصدر نفسه، ص131
47) المصدر نفسه، ص139
48) المصدر نفسه، ص145
49) مُحَمَّد الدغيري، دول لا يزرها الغرباء، ص12
50) المصدر نفسه، ص17
51) المصدر نفسه، ص12
52) المصدر نفسه، ص18
53) مُحَمَّد الدغيري، دول لا يزورها الغرباء، ص31
54) المصدر نفسه، ص35
55) المصدر نفسه، ص50
56) المصدر نفسه، ص72
57) المصدر نفسه، ص76
58) مُحَمَّد الدغيري، دول لا يزورها الغرباء، ص78
59) المصدر نفسه، ص97
60) المصدر نفسه، ص104
61) المصدر نفسه، ص108
62) مُحَمَّد الدغيري، دول لا يزورها الغرباء، ص4
63) المصدر نفسه، ص51
64) المصدر نفسه، ص62
65) المصدر نفسه، ص70
66) مُحَمَّد الدغيري، دول لا يزورها الغرباء، ص82
67) ينظر إلى: مُحَمَّد الدغيري، دول لا يزورها الغرباء، ص82
68) المصدر نفسه، ص85
69) المصدر نفسه، ص87-(بودفا) أميرة البحر الأدرياتيكي
70) المصدر نفسه، ص107

71) مُحَمَّد الدغيري، دول لا يزورها الغرباء، ص124

72) المصدر نفسه، ص 128

73) المصدر نفسه، ص 131

74) المصدر نفسه، ص136

75) مُحَمَّد الدغيري، دول لا يزورها الغرباء، ص144

76) الصفحة نفسها.

77) مُحَمَّد الدغيري، دول لا يزورها الغرباء، ص24

78) المصدر نفسه، ص33

79) المصدر نفسه، ص49

80) المصدر نفسه، ص81

81) دول لا يزورها الغرباء، مُحَمَّد الدغيري، ص 93

82) مُحَمَّد الدغيري، دول لا يزورها الغرباء، ص45

83) المصدر نفسه، ص66

84) المصدر نفسه، ص73

85) مُحَمَّد الدغيري، دول لا يزورها الغرباء، ص81

86) المصدر نفسه، ص85

87) المصدر نفسه، ص115.

المصادر والمراجع:

1- بشرى موسى صالح: الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، 1994، المركز الثقافي العربي، المغرب.

2- جمال نوال: جماليات أدب الرحلة عند ابن بطوطة، رسالة جامعية بمعهد اللغات والأدب الغربي بالجزائر، 2010-2011م.

3- شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، 2002، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر.

4- عبد الرحمن بن روزة: جمالية الصورة الشعرية لدى أمل دنقل، جامعة بومرداس-الجزائر، 2016م.

5- عزة جدوع: البيان دراسة في الانزياح الدلالي، ط1، 1435-2014، الناشر مكتبة الرشد.

6- مُحَمَّد الدغيري: دول لا يزورها الغرباء، أكتوبر 2020م، الدار العربية للعلوم، بيروت-لبنان.

7- مُحَمَّد رياض الوتار: توظيف التراث في الرواية العربية، منشورات اتحاد الكتاب، دمشق، أبريل 2002.

8- منصور نعيمة: جماليات الخطاب في رحلة ابن بطوطة دراسة تحليلة، رسالة ماجستير ضمن مشروع الأدبي الرحلي المغاربي، جامعة وهران-الجزائر، 2010.

9- ناصر بركة: جمالية توظيف أدب المكان في أدب الرحلة في مدينة الضباب ومدن أخرى لعبد الله الركيبي أنموذجا، جامعة المسيلة-الجزائر، 2016م.

Sources and references:

1- Bushra Musa Saleh: The Poetic Image in Modern Arab Criticism, 1994, Arab Cultural Center, Morocco.

2- Jamal Nawal: The Aesthetics of Travel Literature of Ibn Battuta, a thesis at the Institute of Western Languages and Literature in Algeria, 2010-2011.

3- Shuaib Halifi: The Journey in Arabic Literature, 2002, General Authority for Cultural Palaces, Egypt.

4- Abdul Rahman Bin Roza: The Aesthetic of the Poetic Image of Amal Dunqul, University of Boumerdes - Algeria, 2016.

5- Azza Jadou': Al-Bayan, a study in semantic displacement, 1st edition, 1435-2014, published by Al-Rushd Library.

6- Muhammad Al-Dughairy: Countries that strangers do not visit, October 2020 AD, Arab House of Sciences, Beirut-Lebanon.

7- Muhammad Riyad Al-Wattar: Employing Heritage in the Arabic Novel, Publications of the Writers' Union, Damascus, April 2002.

8- Mansour Naima: Aesthetics of Discourse in the Journey of Ibn Battuta, Analytical Study, Master Thesis within the Maghreb Nomad Literary Project, University of Oran-Algeria, 2010.

9- Nasser Baraka: The aesthetics of employing the literature of the place in the literature of the journey in the city of fog and other cities by Abdullah Al-Rakibi as a model, University of M'sila - Algeria, 2016.